

ألا شئ خارج النص حقاً...؟! عذاب العراق في نصوص الشباب العراقي

▪ أ.د. بشرى البستاني

ونحن نغض النظر عما كتب من ثلاثين عاما، ونقرأ بأناة ما يكتبه الشباب العراقيون اليوم من نصوص، تلوح لنا مقولتنا جاك دريدا وميخائيل ريفاتير " لا شئ خارج النص " و " النص مكتفٍ بذاته " شاحبتين باطلتين عاجزتين عن التسويغ والمكوث، ذلك أن كل إشارات هذه النصوص تؤكد أن التاريخانية هي التي تشتغل اشتغالا حثيثا داخل هذا الخطاب، لان كل شئ يثوي في النص، في أعماقه ومكوناته مرة، وفي طبقاته الوسطى أخرى، وعلى سطحه الظاهر مرات، ها هي النصوص أمامي، وها أنا أحدث نفسي بصوت عالٍ كما أراد لنا خطاب ما بعد الحداثة.. أن نهذي، وأن نعليَ مكونات المجانين والمهمشين والمساجين والمعاقين الذين طال بهم الضيم والقسر، ولماذا الخجل من الحقيقة وان كانت مرة، فنحن مهمشون مساجين معاقون من ثلاثين عاما مضين، تعمل قوى كبرى على استمرار سجننا وخنق أنفاسنا وتعميق أسباب عوقنا، قوى لا طاقة لنا على مواجهة قهرها والإطاحة بمنظومات مقاصدها، مساجين بمنع السفر ومنع الكهرباء والماء في بلد الحضارات والثروات والأنهار، ومعاقون بعذاب يفتت أرواحنا وينخر هياكلنا العظمية، وعميان بدخان يملأ عيوننا وصدورنا بشظايا الليل و النهار وبكمامات تلجم أفواهنا فلا نقدر على الكلام حتى لا نُختطف في وضج النهار أو نُقتل على مرأى الأَشهاد الذين لا يملكون لنا حولا ولا قوة وان كانوا رافضين قتلنا، حتى لم نعد بحاجة إلى ما يكمم أفواهنا يوم أدركنا ألا جدوى من الكلام فصمتنا، وحينما اقترح هذا الخطاب (ما بعد الحداثة) مصطلحات النص والنصوصية والخطابات لابتلاع كل الأجناس الأدبية والفنية كذلك حسبما شاء دريدا ورولان بارت وأشباعهما، وحينما اقترحو النص المفتوح كذلك ليجتلب إليه تداخلات شتى لكن على مزاجهم، وليسستوعب لا نهائية الدلالة والإرجاء والاختلافات والأثر، لم يكن يعتقد احد أن ذلك كله وجد ليتسع أو ربما لا يتسع لأحزان الشعوب المنكوبة بالصواريخ والحرائق والتشردات ولكابدات شبابها الذين فتحوا أعينهم على الظلم

وحفر الخنادق وعلى ملممة أشلاء أصدقائهم من الملاجئ المشتعلة بالقنابل العنقودية ودفن أعضاء أطفالهم وجيرانهم المتناثرة مع الشظايا، ولقد كان أولئك الفلاسفة على حق لأن أي جنس من الأجناس الأدبية المعروفة قصيدة كان أم قصة قصيرة أو رواية أو مسرحية، لم يكن ليتسع لمثل تلك العذابات، ولعلمهم كانوا يدركون في تخطيطهم الإستراتيجي ما ستكون الرزايا الجديدة بحاجة إلى المكوث فيه...مخازن أسلحة تنفجر لتبعثر مدنا، انفجارات تهدم أحياء سكنية بكاملها، عبوات تحرق شوارع، أشلاء النساء والرجال والأطفال تختلط معلنة المساواة التي ما تحققت الا بالموت، قواطع اسمنتية تقطع الحي الواحد إلى خمسين قطعة فما بالك بالمدن، وكيف تخرج من بيتك لتضيع بين الموانع والقواطع وأنت تبحث عنه في العودة فلا تصل إليه إلا بعد جهد، وإذ ترفع المفخخة جدران بيتك وتكومه مع ما فيه وأنت في العمل لتعود بعد الظهر فلا تجد إلا حطامه، وبين الحطام تقف لا تبحث عن شئ ولا تفكر بشيء لأن اختلاط دلالات ما يجري في رأسك وتداخل الأجناس فيه يكون قد ابتلع كل شئ، هل اتسع النص المفتوح لحزن العراقيين إذن؟! وأنت نائم في الليل تهبط طائرات الديمقراطية الجديدة على سطح دارك، تفجر بابك الأعلى بال..تي، إن، تي، تدفع بالبساطيل الثقيلة المتحضرة أبواب غرفك حتى تعثر عليك في غرفة النوم لتجرك من سريرك وسط زوجك وأطفالك وليدفعك المحررون الجدد إلى السطح بملابس نومك، وقد تكون عاريا في الصيف الا مما سترالله فحر الصيف لهيب قاهر قاتل ولا كهرباء، فالكهرباء تضر بالصحة في العراق، والنوم في سطح الدار يزعج طياري الديمقراطية العتيدة ولذلك يؤشرون رفضهم للنائمين بالرصاص، وبعد أن يقيدوا ساعدك ويدفعوا زوجك بالرشاش مغمضة العينين بقناع اسود نحو زاوية الغرفة بعد منعها من الكلام بالتهديد ينصرفون لتفتيش الدار على السريع حاملين معهم اللاب توبات وحقائب النساء وما خف وزنه وغلا ثمنه من مصاغتهن، وبعدها يذهبون بالرجل وربما بالمرأة إذا أساءت الأدب واعترضت إلى مكان مجهول دون ان يعرف أحد لماذا، ولا الى اين ...!!

خطر لي كل ذلك وأنا أفحص النتائج النهائية لنصوص المسابقة الإبداعية لشباب جامعة الموصل التي أدرب نفسي من ربع قرن على إخفاء أسماء كتبها

لأتعامل مع النص وحده، لكن وخزات النصوص ظلت توجعني حتى تراكمت أنينا وفقدانا وحزنا ونزفا وحرائق، وحتى امتدت لوعة النص الأخير إلى صميم الروح، وحينها تحول الوخز إلى صدمة وصرخة، ففتحت ما خبأت عن نفسي لأقرأ .."الزاوية البعيدة.." علي حيدر، هذا النص واحد من النصوص الكثيرة التي كثفت خسائر العراقيين وفجائع أعمارهم وما تكسد من كوارث دحضت أحلام مشروعاتهم البرئ الذي خربت نبلة وجرحت طفولته عدوانية وحشية بشعة الشراسة :

لا تنسي الموعد

قرب الشارع الملكي أو الجمهوري ..

لا فرق ...

ربما تأخر الموعد عشرة أو خمسة عشر ر عاما

وربما أكثر، فلم أعد أكثرث بالخسائر كثيرا

فقد تعلمت ألا انظر إلى الخلف، ولا حتى إلى الأمام،

تعلمت في الآونة الأخيرة الا انظر أبدا،

هل انا في الآونة الأخيرة فعلا ...!؟

منذ عدة حروب وأنا لم أعد أعرف شيئا ..

وأنت ربما هرمت قليلاً وذوى انتصاب جسدك قليلا، ربما تساقط شعر رأسي، وانطفأت الشراهة في عيني ولم نعد مناسيبين لبعضنا، أو لم نعد مناسيبين لأي شئ آخر، ربما الأسئلة التي أرقتنا قد فات أوانها كثيرا، ربما الذكريات صارت أكبر منا، ذكرياتنا الشخصية ونحن بعيدون عن بعضنا، والتي بددت عنفواننا وصارت هي الماضي أكثر منا،

لكن على الرغم من هذه الريمات

تعالى إلى الموعد...

.....

لا تتوقعي مني أن اعتذر إليك / لن أعتذر أبدا / الحروب أيضا لم تعتذر /
السنوات التي ضاعت لم تعتذر مني / حتى الأمر الذي تركني وسط الشظايا / لم
يعتذر / كنت مجرد كائن أو كائن مجرد / مجرد حتى من نفسي / كانت الحياة
قطرة صغيرة استقرت في قلبي ..

تعالى إلى الموعد.....

ولا تنسي أولادنا الذين لم ننجهم / الذين حلمنا بهم يوما / اجلبهم معك /
أطفالا بلا أمل /

قد يلوموننا لانا لم نفعلها من اجلهم / لكن اجلبهم / ولا تنسي بطاقة
الجنسية / وبطاقة السكن وبطاقة الحصبة التمونية / قد نمر على دائرة الرعاية
أو دائرة التقاعد/ لا تنسي حين تدخلين / أن تنظري إلى الزاوية فورا / فأنا
أجلس هناك / معتما ومجعدا..../اجلس وكأني غير موجود / لا تتلفتي وكأنك
تبحثين عن أحد / فأنا لا أحد ...

وأي عذاب أن يتشياً الإنسان ليصير لا أحد...وأي دين او فلسفة وضعية
محترمة تقبل بتحويل الانسان من توهج روح الله وآياته في خلقه الى شئ بارد
صامت قاتم مخلوع من شجرة الرحمة ومستباح ...

ويواصل النص التوغل باغترابه ومعاناته طويلا، كعذاب العراقيين الذي لا
يراد له أن ينتهي، ويواصل حضوره وهو يكشف عن إنسانية مهشمة، منكسرة
مجروحة مرهقة لكنها تتلفع بإباء لا يعطي نفسه للمساءلة، لأنه إباء المستغني
الذي لايرجو من وراء تعرية البشاعة مقاصد آنية، ولا يسعى في نغمته على القبح
السائد إلى هدف ذاتي مكشوف أو مكنون، لكنه يضم في التأويل هدفا أكبر من
كل أهداف مناوئيه وأنبيل من كل مساعيمهم التي عبرت وتعبير على أحزان الأبرياء
ومشروعية أمانهم، كونه يحتاج على كل منظومات القيم التي جعلت من كرامة
روح الإنسان وسيلة تُمتطى لوصول أهداف ضيقة ومبتذلة وعديمة القيمة إلا
من أنانية أصحابها وضيق أفقهم وغباء طرائق وصولهم حيث لا وصول إلا إلى
الهاوية، فيها أيها الشباب العراقي مبدعين ومبدعات...من حرككم ألا تعتذروا لأحد

لكني أعتذر لنصوصكم ألا أقرأها قراءة نقدية لأن جروحها الغائرة الداكنة من شدة ما نذفت في الداخل والكثيفة زهدا بتفاصيل لا تجدي، أكبر من كل النظريات التي درستها وأدرسها لطلابي والتي أرجوهم في نهايتها أن يحفظوا قول ميشيل فوكو عن ظهر قلب " إن تفسير الخطاب دوما رهينٌ بيد من يمتلك السلطة " فمتى نعرف الطريق للامساك بسلطة مشروعة تؤهلنا لتفسير خطاب نشكله برؤانا وهي تفصح عن نفسها قوية واعدة ومعاصرة ناهضة من كل ما هو أصيل عصي على الإلغاء والتغيب .

و....أليس من حقنا جامعات ومؤسسات مدنية ومنظمات غير حكومية أن نرفع نصوص شبابنا المنكوبة بدمها وخرائب ايامها ودكنة ليالها المحرومة من النور والأمن والأمل الى لجان حقوق الإنسان في ((الامم المتحدة!!؟)) والصحة النفسية واليونسيف واليونسكو ان كان للإنسان وحقوقه حقوق لنسألهم من المسؤول عن تجريح هذه البراءة التي ما اقترفت اثما ولا خاضت غمار عدوان، من المسؤول عن ضياع أجيال تتعاقب وزمن يزوي وطاقت تضيع ...؟!

من المسؤول عن لوعة شابات بعمر الورد تتناثر دموعهن على المسرح، يبكين الوانا من الكوارث والخراب والفقدان، وغصص شباب يحكون بوجع حزن ايامهم الطافحة بما لا يصدق من الفجائع، من المسؤول ..؟ من المسؤول ... والى متى...!!